AL - DOMA WA AL - SHAITAN

Twitter: @alqareah
9.4.2015

قصص قصيرة

محمود محمد حسن

الدُّمى والشيطان

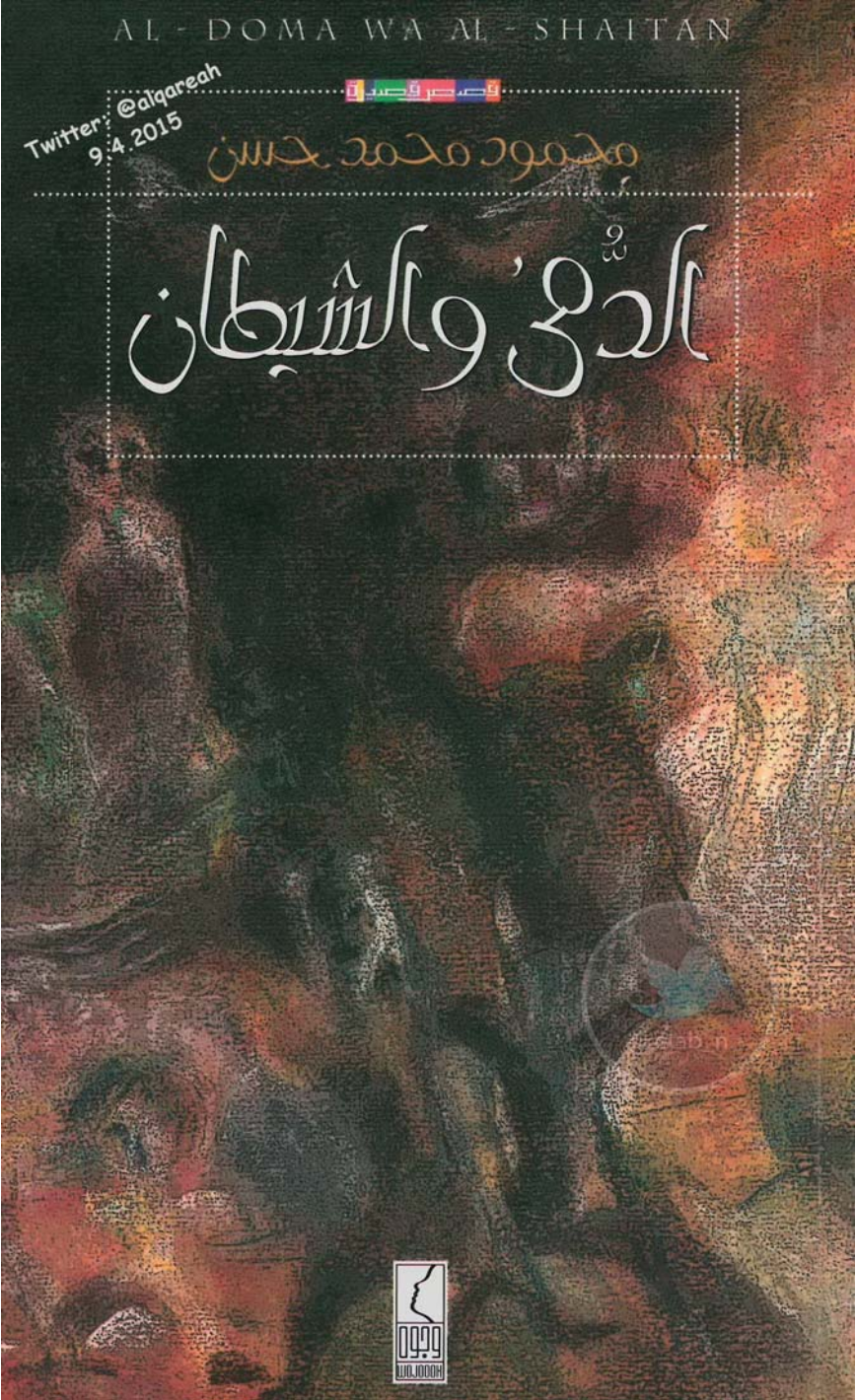

وجوه

الدمى والشيطان

محمود محمد حسن

Twitter: @alqareah

من السودان
محمود محمد حسن

قصص قصيرة
الطبعة الأولى

منشورات
1428 - 2007
حقوق النشر والتوزيع محفوظة

دار وجوه للنشر والإنتاج
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية
- الرياض
ت: 2316743 - 2335875
فاكس: تحويلة 108

للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com

التنفيذ الفني والإخراج
وجوه للإنتاج الإعلامي
لوحة الغلاف : حاتم
رسوم داخلية : أبو الحسن
تنضيد وتنسيق : محمد

رقم الإيداع: 130 / 1428
ردمك: 7 - 983 - 56 - 9960

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب؛ أو نقله في أي شكل أو وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو يدوية أو ميكانيكية، بما في ذلك جميع أنواع تصوير المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو أنظمة الاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر بذلك.

No part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic,manual.mechanical,photocopying, recording, or otherwise without prior written permission of the publisher.

Twitter: @alqareah

إلى كُلِّ صاحب موقفٍ حرٍّ ..
لم تُثْنه عنه ملامة..
ولم يَسْتَعْبده فيه غرور..
إلى الذين فَطِنوا إلى أنَّ شموع الحقيقة؛ أعظم
من أن تضيء جميعاً في قلبٍ واحد..
أو عقلٍ واحد..
أهدي رؤيةً عن الحياة.. «أحسبها حرةً»..

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

كنت أستحكي والدتي كثيراً عن حمد كنتوش، وهي كانت كثيرة الذكر له؛ كلما تذكرت وجعاً، وكلما ألم بها مرض.. لقد قالت لي مراراً ما يشبه المعجزات عن بركة شفائه، ودائماً ما تفتخر بأنها أدركته في طفولتها، وأنه مسح على رأسها؛ فزال عنها صداع الشقيقة الذي كانت تعاني منه أشد المعاناة.

كنت متعجباً حين حكت لي عن مداواته لكثير من الزمنى والمفلوجين؛ بنفثاته ومسحاته الرقيقة.

وكانت والدتي تصر على أن حمد كنتوش لم يكن إنسياً خالصاً، بل كان أبوه شيخاً صالحاً من الجن، أما أمه فامرأة من العرب المجاورين للنوبة، يُحكى عنها صلاحٌ وحسن خلق، وقد حبلت به قبل أن يعرف الناس لها زوجاً؛ ثم وضعته بعد ثلاثة أشهر من زواجها بابن عمها، وحين تفشت القالة بالسوء فحصتها النسوة؛ فإذا هي بكر لم تفض، ولهذا كان يقال إن حمد كنتوش من الجان الصالح.

وقد أخبرت والدته نساء الحي بأنها تزوجت من جني مسلم، وأن الشيخ

Twitter: @alqareah

جبارة شهد على عقدها، ويقال إن الشيخ جبارة قد شهد أمام الناس بذلك فعلاً.

وكانت القدرات الخارقة التي يراها الناس في حمد كنتوش تؤكد لهم أنه من الجان؛ فقد كان أحياناً يختفي فجأة بين الناس، كما حكى ذلك بعض أهل القرية، وكانوا يرون في يده فواكه غريبة؛ لا تنبت ببلاد النوبة، ولا يعرفونها. ولأنه كان صالحاً وعابداً، ظنَّ الناس أن أكثر ما يرونه هو من الكرامات؛ التي يحظى بها الصالحون.

وأذكر أنه كان يلتف حول جيد أمي عقد به خرزات صفر؛ لا تحلُّه عن جيدها أبداً؛ لأن حمد كنتوش أعطاها إياه؛ كي يجلب لها السكينة، فقد كانت -حسب زعمها- شديدة الخلق، حادة الطباع، حتى أخذت هذا العقد من حمد كنتوش؛ فتحسنت أحوالها بعد ذلك.

كنت أعرف أن حديث أمي كان من نسيج الخيال، وأن حمد كنتوش هذا؛ ليس إلا رجلاً صالحاً، ينفع الله به بعض النفع المحدود، ولهذا حاولت إقناع أمي بأن هذا العقد لا ينفع ولا يضر، وأن الشيخ حمد كنتوش أراد فقط إيهامها ومعالجتها بالوهم، وإن لم يكن كذلك؛ فهو ليس إلا دجَّال أفاق.. لكنها لم تكن ترضى بهذا الحديث، فقد لمست النفع من هذه القلادة.

أما حمد كنتوش فأنزه إنسان عرفه أهل قريتنا، ولم يكن يأخذ على معالجته فلساً، ولم ينظر قط إلى وجه امرأة متعمداً، ومات زاهداً حصوراً.

في زيارتي الأخيرة لوالدتي؛ طلبت منها أن تلبسني عقدها فترة مكثي معها، حيث أشتكي من ضيق واكتئاب، وبعد لأيٍ؛ وافقت والدتي على هذا الطلب، وهي كالمستنكرة، وبعد أن ناولتني القلادة ولبستها؛ تحليت بالذهاب إلى بيت الخلاء، فأبدلتها بقلادة مصنوعة مطابقة لتلك القلادة؛ التي أعطتني

Twitter: @alqareah

إياها أمي وأخفيت هذه الأصلية في كمي، ثم ذهبت إلى أمي وواصلت الحديث، ولما هممت بالانصراف؛ طلبت مني والدتي إعطاءها القلادة، فامتثلت؛ وأنا مؤمن بأن عينيها الضعيفتين لن تميز بين القلادتين، ولقد كانت أمي طيلة المدة التي أخذت منها القلادة مكتئبة وواجمة، لأن قلادة السعادة ليست حول عنقها.. فلما أعطيتها هذه القلادة المصنوعة؛ كنت متأكداً من أن السعادة الموهومة سوف تجلب إليها تلك الابتسامة المعهودة، لكنها لم تبتسم، وظلت مكفهرة، فسألتها؛ لماذا لم تشعر بالارتياح والسكينة بعد أن لبست قلادة حمد كنتوش؟! فقالت لي : والله يا ولدي لا أدري، هذه المرة الوحيدة في حياتي لا تثب إلي السعادة بعد لبس القلادة.. إن هناك أمراً غير طبيعي يا ولدي..

لم أرد كشف الحقيقة لها، وقد تعجبت من هذا الإحساس الغريب لديها.. ولكني تعجبت أيضاً من أمر آخر، فطيلة طريقي إلى منزلي كنت متقلداً تلك القلادة وأشعر بسعادة غامرة لا أعرف لها سبباً!!

◆ ◆ ◆ ◆

Twitter: @alqareah

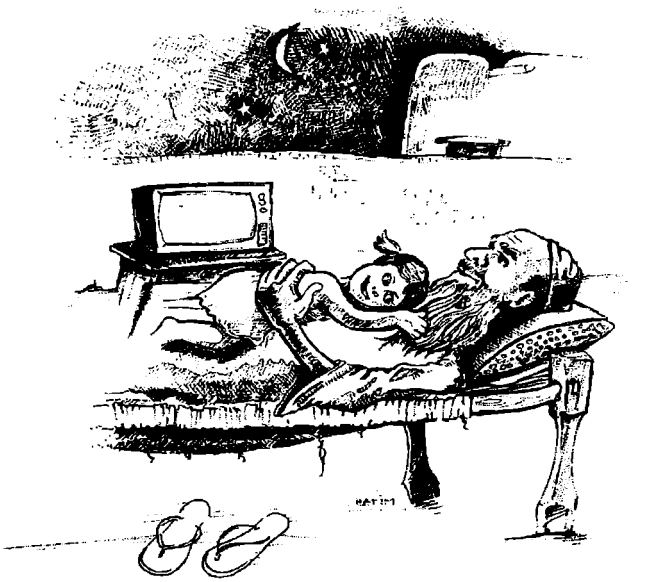

ضوء جُمة

Twitter: @alqareah

في ليلة عليلة الهواء، جلس أفراد عائلة عبدالمحسن تحت سقف السماء، يتحدثون في كل شيء، وكان المنزل على ضيقه يبدو شاسعاً؛ لقصر السور، وامتداد السماء، تمدد عبدالمحسن على عنقريبه القديم الذي يغطس بجسده الكهل، فيكاد يَمسُّ الأرض، أما البقية فعلى كراس وسرائر معدنية، وقد انشغل الجميع عنه بالتلفزيون؛ حتى لكأنه غير موجود.

كانت زوجة عبدالمحسن على قسط غير قليل من جمال؛ يتخفى حيناً ويبدو حيناً، وتلازم وجهها ابتسامة وديعة وهدوء أخاذ؛ يشيران إلى أنها تعني ما تقول وما تفعل، وقد أعدت لهم الليلة كعكة إسفنجية؛ رائعة احتفاء بالضيوف؛ حيث زارتهم أرملة أخي عبدالمحسن وطفلتها الجميلة (زهوة) والتي تبدو كصورة مصغرة لأمها.

كانت هذه الجلسة وأمثالها تبعث السرور في نفس عبدالمحسن وزوجته؛ التي كانت تعامل هذه الأرملة البائسة كإحدى بناتها؛ أو أخواتها الصغار، ولطالما أوصت عبدالمحسن بها خيراً، أما هو فكان يبدي من الاهتمام قدر

Twitter: @alqareah

ما تبدي ولا ينفك قائماً بما يجب على رجل نبيل تجاه أرملة أخيه واليتيمة التي فقدت الوالد.

كان أكثر من يتحدث ابنتان لعبدالمحسن، وتحاولان جهداً أن تزيلا بعض الانقباض والتحشم من أرملة عمهما، فقد كان عبدالمحسن ربَّى أبناءه جميعاً على المباسطة وطرح الكلفة، وألا يكتم أحدهم ما في نفسه، وحين يبدأ أولاده في الثرثرة؛ يعجبه أن يستمع إلى جدالهم، ويضحك؛ ولا يوقف الجدال؛ إلاّ الأم.. وبهدوء أيضاً..

كانت (زهوة) ترتاح كثيراً في بيت عمها، وكثيراً ما هرعت إلى حِجر عمها؛ فملس على شعرها الناعم؛ حتى استسلمت للنوم، وكان الأولاد يحبونها جداً، وتصنع أمهم لها بعض الدمى، وتشتري لها الهدايا في المناسبات، أو تصطنع مناسبة لتقديم الهدية، وكل الناس يحكي عن العلاقة المتينة بين الأسرتين..

كانت الفتاتان تثرثران؛ والأم مشغولة بصب الشاي، وتقسيم الكعكة، وعبدالمحسن ينظر في السماء؛ باحثاً عن وميض نجوم أخرى، وعلى صدره ترقد (زهوة)، والتي تمد يدها -أحياناً- إلى طرف لحيته فيحاول عضها بشفتيه؛ فتسحبها -حينئذ- ضاحك؛ة أقصى ما يكون الضحك، ثم يعود عبدالمحسن إلى السماء؛ وكانت أمها تتابع هذا المنظر وتصحو منه إلى حديث الفتاتين؛ ثم لا تلبث أن تعود، كان يعجبها في هذا الرجل كل شيء، وربما رأت فيه كثيراً مما لم تره في أبيها من قبل؛ ولا في زوجها، ولا بد أنَّ الله قد كافأه مع طيبه بزوجته؛ التي يجري الثناء عليها على كل لسان، وكانت تتمنى لو مكثت ابنتها في صدره؛ للأبد ليعوضها حنان أبيها.

كان عبدالمحسن تلك الساعة ينظر في السماء الصحو، وقد نسي أن يعضَّ

Twitter: @alqareah

يد زهوة، بينما سارت أمها بنظراتها نحو سمائه؛ باحثة عن بريق تلك النجمة وحينئذ أقبلت امرأة العمّ الطيبة؛ لتقدم لها قدح الشاي والكعك، وهي تبتسم لها؛ بمحبة لم ترها من قبل، وكان الشاي ألذّ من أي وقت مضى، ولم تبال بعد أن تنظر في السماء لتبحث عن بريق تلك النجم.

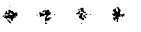

Twitter: @alqareah

القارئة
Twitter: @alqareah

«أنا كلب.. أنا لا أسوى نعلاً».

بهذه الكلمات ذرع طريقه وبصره شاخصاً في الأرض بعينين مغرورقتين، وكان قميصه قد أنتن بعرق غزير، وظهر الطريق أمامه خاوياً؛ مع أنه يعج بالمارة، والسماء فوقه مظلمة؛ وإن كان شعاع الشمس ساطعاً يبعث الحياة.

لم يكن يدور بخلده يوماً - حين كان يعقد حبلاً من التيل لحمار أبيه حول جذع نخلة معطاء - أنه سيذهب إلى العاصمة ويغوص، في كرسي كبير مثل قطة في سرير..

كانت المدينة بالنسبة له جنة الدنيا، فهناك سوف يأكل ما لم يأكل، ويلبس ما لم يلبس، ويمتطي ما لم يمتط، ولكم تحسر على حياته الجافة التي لا يتغير فيها الطعام؛ من الويكة إلا إلى صنف آخر منها، حين يتذكر الكعكة السمراء التي صنعتها زوجة عمه، وكيف قطعتها إلى مثلثات جميلة، كان نصيبه منها قطعتين أتى عليهما، وتمنى لو أعطي قطعة أخرى.

بدت مشيته وهو يردد لنفسه السباب أشبه بهشيم يدحرجه الهواء، وهو لا

Twitter: @alqareah

يدري إلى أين يمضي، ولم يكن من قبل قط يمشي إلى غير غاية؛ فخطواته مذ شب أمام عيني أمه محسوبة في خدمة أسرته الصغيرة، إلا سوانح من لهو؛ كان شبيهاً بطقوس محددة المكان والزمان، لكم كانت الحياة قاسية عليه آنذاك ! وربما دعته قسوة الحياة إلى أن يحمل على أبيه شيئاً من الحنق؛ أن تخلى عنه في سن مبكرة؛ ليخلد إلى راحة أبدية.

كان يوم مجيئة العاصمة حافلاً بمشاعر متعاركة، فهي المرة الأولى التي يفارق فيها أسرته وترابه وأصوات الديكة في الصباح، والرمال الباردة مع ضوء القمر قد لطمت جداراً قصيراً لسور الطاحونة العتيقة، وهي المرة الأولى - كذلك- التي يخرج فيها من القمقم إلى الحياة الشاسعة؛ بكل ما فيها من طموح وأمل وخوف، وقد بدا له حتى الخوف إحساساً لذيذاً لم يعهده.

بدأ يلوذ بحائط مديد الظل، وما إن يلتصق به حتى يمد يده ليصده عن جسده، وقدماه لا تباليان ما تركلانه من قاذورات، والكلاب يسير بعضها بقربه؛ كأنها تبحث عن جيفة.. كان يعلم أنه أصبح جيفة، وربما فاح منه النتن... ازدادت الشمس سطوعاً، وبدأ الظل ينكمش؛ لتتعرى البسيطة من كل غطاء؛ كساعة مجيئه المدينة أول مرة، حيث بدا له حينذاك كل شيء ساطعاً متوهجاً؛ حتى عمه حين قابله بدا إنساناً آخر مسكوناً بشعاع متمرد، وكأنه يريد أن يفعل كل شيء، وهكذا رأى سائر الناس في المدينة، حتى امرأة عمه حين رآها؛ ظهرت له امرأة أخرى أكثر حيوية، كان يقرأ في عينيها وعوداً كثيرة بالكعكات السمراء التي أحبها، وطيبات أخرى سيتذوقها بالمدينة، وقد كانت تعامله برقة، وأصبح لها صبياً مطيعاً منذ اليوم الأول، وقد عرف أنها تعيض به أمومة هاربة؛ طالما سهرت لها الليالي تشوقاً.

ولأنه كان متأهباً لكل جديد في المدينة؛ وفهم أن المدينة يجب أن تخالف

Twitter: @alqareah

القرية في كل شيء، أصبح من السهل عليه أن يبدو في وقت وجيز غاية في النظافة والترتيب والتهذيب، ولا جرم أن أكثر الفضل يعود إلى امرأة عمه، فقد كانت امرأة شابة سموحة، تسعى ليبدو كل شيء أمام عينيها منظماً وأنيقاً، وكانت هي في نفسها قمة في الأناقة والجمال، وإن كان المُتَفَحِّصُ يبين له أنها لولا اهتمامها بزينتها؛ لما استحقت أن تعد من الجميلات، ولكانت في حدود متوسطات الجمال.

كان عمه يريد أن تتجلى فيه مظاهر الحضارة في كل شيء، فهو شاب حديث العودة من أمريكا؛ التي لا يفتأ يمجد فيها النظام والنظافة، مع أنه عاش فيها في قبو مليء بالصراصير، ولم يتذكر قط أنه كوى فيها قميصاً؛ أو تناول وجباته الثلاث في يوم؛ منتظمة في أوقاتها، لكنه الآن شيء آخر؛ كأنه يستعيض ما فرط من النظام والنظافة بأقوى مما كان عليه قبل سفره.

كان عمه عاشقاً لزوجته، ويؤكد لها دوماً أن الحياة الزوجية ليست أطفالاً وحسب، ولا يبالي أن يصرح لها بحبه على ملأ، وهي كذلك، لا ينتابها أدنى خجل في إبداء مشاعرها نحوه أمام الناس، وكان الناس ينظرون إليهما ككائنين غريبين ومتوافقين إلى حد بعيد، أما هو فقد ألف هذا الجو وصار مثلهما، ولم يعد يستحيي حين تضمه امرأة عمه إلى صدرها، وتمرس بيديها الناعمتين على شعره الخشن، كان أحياناً يكره هذه الضمة؛ يحس أنه في سن أكبر من أن يعامل بهذا النحو؛ ولا سيما أن عذاره قد بدأ في الاخضرار ولكنه يشتاق كثيراً إلى هذه الضمة؛ ولا سيما حين تبدو امرأة عمه في ملابس القيلولة؛ مضمخة بعطر لطيف العبق، ويتعجب من أنها غالباً ما تضمه تلك الساعة، كأنها تقرأ في سرحانه حاجة إلى ضمة من هذا النوع، وكان حين تضمه يظل كما هو كطفل سادر في لهوه البريء، ولكنه بدأ الآن يحرك يديه

Twitter: @alqareah

مجيلاً بهما فوق فراغ يسجي ظهرها، وما إن يفكر في اللمس حتى تنتهي الضمة، ولم يكن يخشى بادىء مجيئه إلا من أن تتنازع نفسه الإحساس بالأمومة؛ بين هذه المرأة اللطيفة وبين أمه التي لم تكن تبالي كثيراً بإظهار مثل هذه المشاعر، والتي كانت كثيراً ما تتذكر أباه بأنه لم يقل لها في عمرها كلمة عاطفية، ومع ذلك تحترمه حق الاحترام.

كانت الشمس في كبد السماء، وشرع الظل في الإمحاء تماماً؛ بينما يسير بقرب الجدار يتلمس شريطاً من الظل في قاعدة الجدار، كان يتمنى لو غابت الشمس سنين ثم عادت بيضاء جديدة؛ مغللة بالغمام، أو توارى نصفها وراء جبل يمتد ظله سرمداً، كان الطريق أمامه طويلاً؛ فهو لم يعد يعرف في المدينة أحداً.

في تلك اللحظة كانت أم عقيم تقف على شباك مطل على الباب؛ تنظر في قلق إلى ساعتها وتترقب عودة فتى طيب ملأ حياتها أملاً، وأزال عنها أشباح الوحدة، وعلى الطاولة تتألق أطباق من الحلوى الجميلة؛ تتوسطها كعكة سمراء؛ صنعتها لولدها المتعب دون غيره.

◆ ◆ ◆ ◆

Twitter: @alqareah

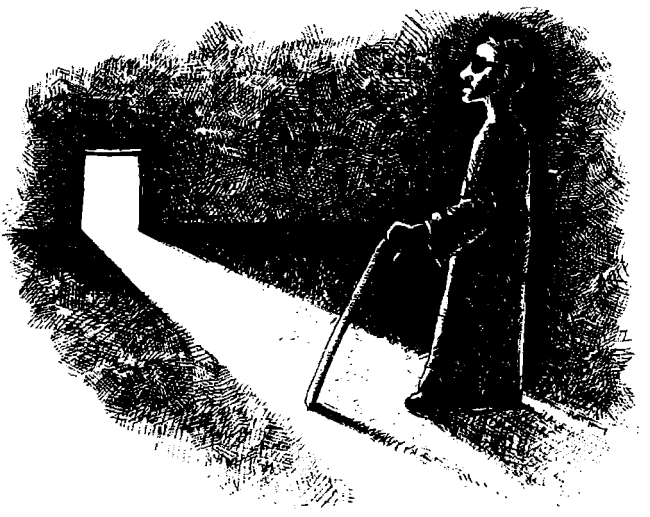

في انتظار النور

Twitter: @alqareah

منذ أن عرف بإمكان برئه من العمى على يد الجراح الزائر، وهو لا ينقطع عن التعبير عن مدى اغتباطه وتشوقه إلى رؤية الحياة؛ لأن ما تبقى لموعد العملية حوالي ساعة فقط، فقد ازداد توارد الخواطر، وغمر قلبه فرحٌ متواثب؛ يملأ جوانحه طرباً.. لقد حكم الله عليه أن يحيا -منذ ولادته- محجوباً عن مشاهدة الكون؛ ولهذا كان يسرف في سؤال من حوله عن شكل أمه، وملامح والده وإخوته.. كان يسمع بالألوان: هذا أحمر وذاك أخضر وتلك سمراء... ولا يستطيع أن يتأكد ما إذا كان الذي يرتسم في ذهنه هو ما يتعارف عليه الناس أم لا ، فربما كانت الألوان التي يراها الناس غير ما يقع في ذهنه، على أن ما يدور في ذهنه ليس له ثبات ولا تحديد.

كان بوده لو يرى ابنة خاله الجميلة؛ التي نشأت معه؛ ليرى مدى هذا الجمال الذي يشيد به الناس، وليقيس أوجه الشبه بينهما، فلا بد أن يكون بينهما لمحة تشابه.

وكان يتوق إلى رؤية القمر منيراً في سدفة الليل، لطالما شعر صاحبنا بالقمر

Twitter: @alqareah

وحملّه أحلامه البيضاء، كان يسمع ويقرأ أن القمر كرة من التراب والصخور؛ تعكس ضوء الشمس، ومع أنه لا يميز بالدقة معنى الضوء؛ إلا أنه لم يخالجه شك في أن للقمر جمالاً غير ما للصخور، وبهاء غير ما لضوء الشمس، وكم تشوّق أيضاً إلى رؤية الخضرة والأزهار والطيور، بل كان يتشوّق حتى إلى ما يصفه الناس بالقبح والبشاعة؛ ليدرك معنى أن يكون المنظر بشعاً.

ما زال يغرق في الخيال نحو القاع السحيق؛ ليطرح على نفسه الأسئلة من جديد، تلك الأسئلة التي طالما دهمته أشتاتاً، لكنها اليوم تدهمه جملة.. مَرَّرَ كفيه على وجهه الذي لم تخطه الشيخوخة بعد، فملس على ذقنه الحليق وقد شاك من تنبت الشعر، وصعد بسبابته على شفته السفلى المكتنزة، ثم إلى العليا الأقل غلظة وقد وقر له أنهما مثل شفتي أمه، فقد كان يحس بهما حين تقبله، وحين تخطىء يده في طفولته إلى فيها بدلاً من عنقها الحنون، ثم انتقل بيده إلى كتلة بارزة في وجهه دهنية الملمس، كان يحس بالاعتزاز كلما حكها بيده؛ فهي -كما يقولون له- تشبه أنف جده الذي كان يهابه الناس ويوقرون حرمته، لَكَم تمنى أن يرى بعينيه هذا الأنف التليد، فالرؤية أمر يتفوق كثيراً على مجرد التصور في الذهن؛ نتيجة اللمس وحده.

سنح مع منخريه وشاربه ملياً، ولما اعتلى إبهامه وسبابته قصبة أنفه شرعتا في الانزلاق إلى المؤق؛ التي تنتهي إلى قيتي النور اللتين حُرمتا النور لديه؛ فعاشتا مظلمتين، كان يسمع الإطراء والتغزل فيهما كثيراً، ولكن ما فائدة جمال لا يرى الجمال؟ لقد حان لهما الآن أن تقرأا الكون وتتلذذا بالجمال، فما هي إلا دقائق معدودة؛ لتبدأ الحياة الجديدة...

ولكن ماذا لو كان الكون أقبح مما يظن، وما تغزل به الشعراء وتغنى به العشاق أقل من الحقيقة بكثير؟.. بدأ يطرح هذا السؤال بطريقة أكثر جدية: لقد عاش

Twitter: @alqareah

ثلاثين عاماً وهو لا يبصر، ولكنه صنع في باطن مخيلته صوراً خاصة لا يراها سواه، وقد أنس بهذه الصور ما شاء الله له، وعاش متلذذاً بالجمال غاية ما يتلذذ الناس، فكل من حوله يشهد له بأنه إنسان سعيد يبتهج في الحياة، بينما يشكو أكثر من يبصرون من الملل، ويكاد الاكتئاب يحوّل حياتهم جحيماً، فلو كانت الحياة بهذا الجمال الذي يدّعي المبصرون، فلم لا يسعد أكثرهم بالحياة؛ وقد امتلأت بالجمال حسبما يزعمون؟! لقد عاش حياته سعيداً وهو راض عن حياته، فلمَ يغامر بتلك السعادة المضمونة لصالح مجهول من الحياة؟ وحتى لو ضمنت له سعادة أوفر مما عاش؛ فلن يكون الفارق كبيراً.. لقد عاش في عماه أسمى حياة الكفاح والإصرار، وصار بشهادة الجميع ناجحاً في كل أموره، واستطاع بحسن خلقه وثقافته العالية أن يضرب به المثل في أهله ومحيط عمله. لقد ساوره شك كبير فيما إذا كان سينال هذا الحظ الوافر من النجاح إذا كان مبصراً، فهو يدري أن فقده البصر قد أوقد فيه كثيراً من العزم والبطولة، وقد ارتاح فيما بينه وبين ربه إلى نوع من التسليم والرضاء باختيار الله له أن يكون كفيفاً.

كانت حينئذ قد مرت ساعتان، وبدأت تتسرب إلى أذنيه أصوات خافتة، ثم بدأ يحس بيد تجس ساعده في حنان، توغل الوعي إليه شيئاً فشيئاً؛ فإذا به يلتقط بأذنيه بعض النحيب المتقطع، وكلمات المواساة التي يتبادلها ذووه، ولكنه كان في تلك اللحظة قد استقر إلى أن سعادته ليست في أن يرى ما حوله بقدر ما هي في أن يحب ويتفاءل بما حوله.. لقد بدأ حياته سعيداً، ولا مانع لديه من أن تستمر السعادة لديه كما ألفها.. تمددت على وجهه ابتسامة وديعة صادقة؛ فهو بلا شك يملك من البصر ما لا يملكه أكثر من حوله من المبصرين بأعينهم.

Twitter: @alqareah

حياة جديدة

Twitter: @alqareah

في الأفق سحائب بيضاء؛ تمتد مثل نفائش القطن، وقد بدت الشمس خجولة؛ كأنما تبتسم إلينا وراء جدار من زجاج كساه الندى.. شرعت أصوات الديكة في الانقطاع؛ ليعلو على إثرها طنين الذباب الأزرق؛ كان كل شيء في القرية يغريه بالبقاء فيها، حتى هجيرها اللاذع له متعته، فلولاه لم يكن سبيل إلى تذوق طعم الإجمام في الظل، والارتواء من كوز مفترع بماء الزير الذي تمر برودته الهادئة على الصدر؛ كمرور نسمة في الصباح.

كانت السعادة تغمر القرية بأسرها لعودته بعد سنوات عدها بعض الناس عشرين عاماً، وعدّها آخرون أكثر من ذلك، وبالقدر الذي شعر به بمودة الناس وشوقهم؛ عبر بريق أعينهم وعمق مصافحتهم التي كانت تسرب إلى قلبه خلجات قديمة كاد ينساها، كان يشعر بأسئلتهم الحائمة توخزه برفق؛ لكنها تقلقه، وكان يعتوره قلق أكبر من لقاء حاج عوض الله، فقد كان حاج عوض الله ذلك الرجل الجليل والصريح؛ قد جعل لنفسه حقاً في محاسبة كل صغير وكبير؛ ولهذا تحاشاه كثيراً لئلا يدهمه بأسئلة محرجة، ولحسن حظه

Twitter: @alqareah

أن انشغل عوض الله عنه في الأيام الأولى ببعض شؤون الساقية، ولكنه كان على يقين من أن إحراج عوض الله لا مفر منه ولو بعد حين، فهو بمقام عمه، ويعد كبير عائلته، وكلمته أمضى من السيف، وكان عوض الله إنساناً يبدو قاسياً لمن لم يعرفه، ومع ذلك يقال إنه يخفي وراء تجهمه وغلظته أحزاناً عميقة ورقة مفرطة.

لم يكن أبواه المحرومان يباليان -تلك الأيام- أن يسألاه عن اختفائه طيلة تلك المدة، ولا ماذا فعلت به غربته؟! فظهرت عليه علامات الشيخوخة في عارضيه، وثقلت مشيته، وتضاوى جسده، كانا يحسان بسؤالهما مثل حجر يرسله صبي عابث ليفزع جمعاً من الطيور الجميلة، ولهذا تركاه ليعيش هانئاً كطائر آب إلى سربه.

وبعد أيام؛ بدأ أصدقاؤه القدماء يلقون بين طيات أسمارهم معه بعض الأسئلة المزعجة، وكان ذلك يضايقه، غير أنه يتظاهر بعدم المبالاة، ويجيب بدعابة ثقيلة تعودوها منه، ثم ينصرفون إلى شأن آخر، وقد فهموا أنه لا يرغب في الحديث، ومع ذلك استلذوا بسؤاله في فترات متباعدة.. لعل وعسى.

كان يعلم أن هذا الكتمان سوف ينتهي؛ وليس ببعيد أن يدهمه عوض الله بالأسئلة المرتقبة، وقد كان الفضوليون من الأهالي -ولعل جميعهم كذلك- يتسنحون فروغ عوض الله من زراعته بالجزيرة؛ ليكشف لهم هذا السر الكبير، ولم يساورهم شك في أنه لن يجسر على الصمت تجاه سؤال عوض الله، فهيبته تفرض أن يُحترم، وتلبى طلباته مهما كانت، أما الكذب فسبيله أصعب، وما من امرئ أضمر أن يكذب أمام عوض الله حتى تلعثم وانفضح، وأسهب في سرد الحقيقة بأكثر مما طلب منه، والحق أن كثيراً من الناس ولا سيما أبواه توجسوا عليه من هذا الموقف العصيب.

Twitter: @alqareah

كانت القرية تبدو في عينيه كل يوم أكثر جمالاً من الذي قبله، وسريعاً ما شعر بأنه لم يفارق القرية يوماً، وبدأت بذاذة الفلاحين تبدو عليه؛ كأنه لم يكن قط يرفل في أرقى الأزياء العصرية، ويتضمخ بأغلى العطور الفرنسية، ومع ذلك بدا أكثر إشراقاً وعيناه أشد لمعاناً من ذي قبل..

لقد كان مطمئناً تماماً إلا من شيء واحد يتمنى ألا يحدث، لكن يكاد يكون من المحال ألاّ يحدث، ويكفي أن يمر بقرب دار عوض الله ليشعر بذلك الفزع الخبيث.

كان ربما تساءل: وماذا لو قلت الحقيقة؟ أليس من حقي أن أعيش كما أشاء؟! وإن أخطأت أليس من حظ ابن آدم في الحياة أن يخطىء؟! حتى لو كان خطئي أن... ألست بشراً قد يحدث منه...، أسئلة جبانة لا تلبث أن تفر كما يفر الأرنب من الثعلب، وكل سبب هذا الشقاء عوض الله.. ألا ليت عوض الله لم يخلق؛ أو ليته مات فارتاح القلب بموته.. أستغفر الله، وكيف يتمنى أحد الموت لرجل يحبه كل الناس وبسببه انكفى كثير من الشر عن القرية.. إنه رجل قديم من سلالة نفيسة تأبى الانقراض.

- ولكنه مُلٌّ ثقيل.. أو على الأقل متعب.

- ليكن متعباً، أليس ذلك بدافع الشفقة والحرص؟!، وتلك الأبوة التي سلمها الناس إياه، فبات أباً لكل شباب القرية، يسهر في مصالحهم، ويقضي بحر ماله حوائجهم.

كانت جرائد النخل خلفه تصطف أمام الشمس شاحبة، وفي خشوع يشبه الصلاة، وكلما فارقها أحس بالانقطاع والوحشة، فتمنى ألاّ يغادرها أبداً، وربما جذبه النيل الراقد خلفها إلى عمقه الصامت، جاءه إحساس لا يعرف سببه بأنه في هذه الليلة سيواجهه عوض الله بالسؤال الذي طالما تهرب منه،

Twitter: @alqareah

وكلما سار خطوة رجف قلبه؛ حتى إذا بلغ باب منزله تردد في الدخول، ولكن أين المفر مما لا بد منه، كان صوت عوض الله في تلك اللحظة يتميز بين أصوات لرجال؛ لا بد أنهم من وجهاء القرية، استجمع طاقته في تلك الساعة، فالموقف لا يحتمل أدنى ضعف، شعر لحين أنه لا يبالي بما سيقال وليكن ما يكون، ولكن ما إن يعود إليه صوت عوض الله، حتى يخور ويتصبب جبينه عرقاً، سار بخطوات متقاربة ومركوبه، يحك في الأرض محدثاً شخيخاً يطول ويقصر، وما إن اقترب والجمع على مرأى منه دون أن يروه حتى بدا له صوت حاج عوض الله جلياً متلألئاً، كأنما نُفض عنه غبار كثيف، ثم ما لبث أن وجد نفسه وسط الجمع يشتف كوبين من شاي اللبن الثقيل، ويقبض عوض الله على يده بخشونة وهو يضحك من طرائفه: الله يا ولدي.. أين أيامك! ثم يمسح مؤخرة عينه بمنديل نظيف.

كانت تلك الليلة طويلة جداً، والقمر لابث في مكان واحد فوقنا، وقد بدا قريباً أكثر من أي ليلة مضت؛ ثم افترقنا بعد ذلك.. لا ندري كيف ولا إلى أين؟

Twitter: @alqareah

الدُّبّ والشيطان

Twitter: @alqareah

في ليلة لامعة النجوم ؛ بدا بيت أبو شنيبة مشابهاً للنجوم بلمعانه في أرض خيم عليها الظلام.. كانت الإضاءة تنبعث من كل جانب، فهناك غير إضاءات النوافذ أنوار منبعثة من فوانيس كهربية ضخمة؛ منتشرة على السور، وأخرى في أطراف الحديقة ينفذ نورها عبر ثغرات اللبلاب؛ الذي يكسو الشبابيك التي تقوست على امتداد السور، وكان السكون يغطي المحيط؛ كملاءة ممتدة مثقبة ببعض أصوات البوم والصراصير.. وبين فينة وأخرى نباح كلب يتضائل حتى ينتهي بالصمت.

لم يكن أحد ليحس بالصوت حتى يقترب من السور بمسافة ما يمتد من نور المصابيح المثنية على الجدار، وإذا اقترب أحد تلك اللحظة فسوف يكون أعلى الأصوات في أذنه صوت عبدالواسع، يتموج في الظلام إلى أن يصل المسامع، كان أبو شنيبة واثنان من إخوته يجلسون كنسور فترت من التحليق، وقد استرخى أبو شنيبة على أريكة وثيرة ممدداً ساقيه الضخمتين، وداعساً بكاحليه على مركوبه الفخم، وقد كسر إحدى عينيه وهو يبتسم؛ ثم يتململ

Twitter: @alqareah

ويحك عنقه وأحياناً يتثاءب، بينما كان عدد من الكهول أكثرهم من ذوي الشوارب الكبيرة والملامح الصارمة يتوزعون بين الأرائك الوثيرة والكراسي العادية، والتي لم تخل من لمسة أناقة؛ بينما انتصب عبدالواسع بثيابه الرثة يزبد ويتوعد ويحلف بالطلاق، والأخوان ينظران إلى ساقيه العاريتين؛ كما يعاينان كومة من تبن تعفن، وقد انتفخت مناخرهما.

كان عبدالواسع تلك اللحظة يقوم بواجبه بشجاعة نادرة أشبه بحالة من الجنون، ففي هذه المرة لا يتحدث باسمه؛ وإنما باسم الوفد الذي جاء معه وفوضه للحديث، ولم يبال عبدالواسع بحركة الخدام من حوله؛ لإعداد الطعام الفاخر الذي اعتاده ضيفا أبو شنيبة، بينما بدا واضحاً أن بعض رفاقه قد سنحوا فترات لرائحة أكباد العجل المشوية، والتي اشتهرت بها مائدة أبو شنيبة.

في تلك الأثناء؛ كان جميع سكان القرية يقظين، وفي تلهف لسماع نتائج لقاء الوفد مع أبي شنيبة، وقد سرهم جداً أن ينتخب الوفود عبدالواسع للمهمة، وكان أفراد إحدى الأسر الفقيرة يترقبون أكثر من غيرهم، بيد أنهم يحاولون إخفاء هذا الشعور، وفي يد فتاة منهم مصحف صغير؛ قد ضمته إلى صدرها.. وعلى بعض دكك القرية يجلس أولاد متفاوتو الأعمار؛ بذيئو اللسان، جلس أكبرهم رافعاً ركبتيه كيدي خنفساء.

- ما الذي أخر هذا الحيوان حتى هذه الساعة ؟

رد عليه فتى سمينٌ متسخٌ:

- المشكلة في أولاد الـ(...) الذين معه، بالطبع لم يفتح أحدهم (...) تركوه وحيداً يلبلب كالحمار..

فتى آخر متقززاً:

Twitter: @alqareah

- نحن شؤم؛ ولولا ذلك ما نزل بساحتنا أولئك الأوغاد.. المصيبة في كبارنا الذين جعلوهم أسياداً علينا بينما كانوا في الماضي القريب أذل من الكلاب الضالة.

قال أحد فتيان الأسرة الفقيرة؛ التي تخفي كثيراً من حنقها، وفي عينيه ترتسم صورة أخته محتضنة المصحف..

- والله لن تبقى لهم قائمة؛ حتى لو خاب الوفد، فإلى متى نحن في هذا الذل والهوان؟!

- والوفد إذا فشل فلنرمهم في البحر.. لعنة الله على أولاد الكلب..

قالها الفتى السمين؛ وهو يبعث بها إلى أخي الفتاة خاصة بنبرة أراحته.

كان الوفد في تلك الأثناء يتمنى أكثرهم لو سكت عبدالواسع هنيهة؛ فقد صار حديثه مُملاً؛ بالرغم من أنه لا يُكَرِّرُ قولاً، وبدأ بعضهم يبالغ في الضحك؛ حين يأتي عبدالواسع بلفظ سوقي؛ كمن يستمع إلى مهرج في ملهاة، ولم يتوقف الخدام الأنيقون طيلة هذه المدة عن إحضار وترتيب أطيب الأطعمة والفواكه، وقد برزت أكباد العجل المشوية في وسط المائدة؛ كقطع من الرخام المتراص مغطاة بسقف من زجاج متكور، وفي سائر المدة كان أبو شنيبة هادئاً غاية الهدوء، لا يلتفت إلى عبدالواسع أبداً؛ وإنما يشرد النظر أحياناً في بعض الوجهاء من الوفود.

فطن عبدالواسع إلى أنه لا سبيل إلى إثارة هذه الكومة من اللحم المتجمد؛ إلا بالمزيد من المواجهة، وهو إلى الآن يراعي كونه ضيفاً، حيث لم يتطرق قط إلى غمز ولمز في أسرة أبو شنيبة؛ مع أنه أقسم لبعض صعاليك القرية أن يسمعه في أهله ما لم يسمعه قط، تجنب أن ينظر في وجوه رفقائه، وبدأ يوغل شيئاً فشيئاً إلى تاريخ عائلة أبو شنيبة، وقد اعتدل أبو شنيبة وإخوته في

Twitter: @alqareah

جلساتهم أخيراً، وكان العرق يتصبب من عبدالواسع بغزارة، وقد عرف أن الآتي لن يتحمله صبره ولا نطاق من معه، وستنقلب الدنيا على إثر كلمات تنبس بها شفتاه، وقد أدرك أنه محق كل الحق في أن يقول كل ذلك، لأنه تاريخ متواصل لم ينقطع، بل يمضي في تفاقم والناس في مزيد من العناء، ولم يعد أبو شنيبة يبتسم كذي قبل، ولكنه ما فتئ يستمع بإنصات، ولم تمض دقائق حتى ظهر صوت سيارات اقتربت من المنزل، ثم ظهر رجل بالباب طويل القامة، وفي غاية الأناقة من اللباس البلدي، وقهقه بصوت عال؛ فوجد عبدالواسع نفسه مجبراً على قطع حديثه، والالتفات إليه، قام أبو شنيبة إليه واحتضنه، وقال له:

- جئت في وقتك يا مولانا.. العشاء جاهز.

- عظيم جداً.. الحقيقة أنني أكاد أموت من الجوع.

قطب عبدالواسع وجهه، وقال:

- بالله لو سمحتم.. الموضوع يجب أن يحسم..

طلب منه عدد من رفقائه أن يصمت؛ ريثما يتم الترحيب بالضيف؛ فلم يبال بهم.

- اسمعوا نحن لم نأت لنضيع الوقت، والضيف على الرحب والسعة، ولكن لا بد من إكمال الكلام..

استمر أبو شنيبة في ترحيبه بضيفه، وتعالت ضحكاتهما، وحلف عبدالواسع ألا يمد يده إلى الطعام؛ فضحك منه أحد رفقائه؛ وقال:

- وهل كنت ستأكل أيها البائس، هذا الطعام للضيف ورفاقه، وواجبنا أن نعاون في الخدمة فقط.

بادر أحد المزارعين باقتراح تأجيل الحديث إلى الأسبوع القادم؛ فكان حظه

Twitter: @alqareah

رتلاً من شتائم عبدالواسع.

ثم أبدى عدد من أعضاء الوفد الرغبة في الانصراف؛ وحينها أقسم أبو شنيبة بالطلاق أن يأكلوا جميعاً مع مولانا؛ فهم عشيرته وفخره، وسار عبدالواسع لا يلوي صوب الباب دون شفيع، ولم يهتم أبو شنيبة وأخواه بدعوته إلى العشاء، ثم ذهب إلى بيته، وبعد أيام سمع الناس خبر سفره إلى قرية أخرى، وأصبح أبو شنيبة قصة يحكيها الآباء لأبنائهم؛ بطلها رجل كريم؛ كان يطعم أضيافه أكباد العجول المشوية.

Twitter: @alqareah

عودة النورس

Twitter: @alqareah

(أمينة.. لوح من سفينة غارقة تقذف به الأمواج) : كانت تلك أنشودة رؤياه المطفأة في ذاكرته؛ والتي أفزعته إلى واقع مرير.

قال؛ وقد عبس بوجهه فوج من رياح الشتاء الباردة :

(ثمة أقدار تهرب منا كي تدهمنا في الأزمة الشاحبة).. هنا في شيكاغو يصبح للحب طعم مخيف؛ لأننا نستشف عبر غلالته متاهة لا تنتهي..

لم تكن أمينة إلا نجمة قديمة.. قديمة، والآن فقط وصل ضوؤها إلى العيون المترقبة؛ بعد ملايين السنين الضوئية.

رآها لأول مرة وهي تفرش أمامه ابتسامة طفولية كياسمينة لامسها ضوء الفجر، وتسأله عما يطلب من صنوف مطعمها المكسيكي.. كان جسدها الأبيض الريان يصعقه بكهرباء شهوة رخيصة.. نظر إليها مبهوتاً وقد تقشر عنه القلق، غير أنه لم يلبث أن استكان إلى براءتها الكامنة؛ ثم دار الحديث بينهما غضاً؛ مثل قلبيهما الغافلين..

لماذا لا تكون أمينة هي المرفأ الأخير والآمن لقلبه؟!.. ماذا يتمنى الرجل

Twitter: @alqareah

أكثر من جمال كهذا في براءة كتلك؟! وكلاهما غريب، وكلاهما من هناك (حيث لا تشكو القلوب الوحدة).

نعم ثمة شك لعين يقلقه؛ مثل قرحة في جلده؛ يتلذذ أحياناً بحكها.. لم يعد هنالك ما يصده عنها، وحتى لو تجلت الحقيقة عن غير ما يتمنى، فلن تكون إلا دمامل من المعاناة لا أكثر، ووشيكاً ما تنطفئ في إهابه الغليظ، لقد تمرس على تحريض النسيان؛ كلما أبلس في غربته؛ ليذيب ملح ذاكرته الرافضة.. إنه النسيان ذاته الذي أتى به إلى شيكاغو؛ ثم أدمنه إدماناً.. كان يفرض على نفسه متعسفاً أن تلك السِّحْنَة الطفولية المرحة أعمق من مجرد عنوان رائع يناجي عينيه.

قال مخاطباً البحيرة المتشحة بسواد ليلة شاتية خرساء :

في مثل ليلة كهذه كنت أدفن أناملي في كثبان الرمل الناعمة، وحولي أحلام تتثاءب، وحكايات تتبعثر؛ رويداً رويداً في الهواء، وها أنذا الآن بين النوارس المهاجرة أزقو في وجه الأعاصير الثلجية.

لقد أيقن أن القدر يسوقه الآن إليها؛ كي يمسك بيدها فوق ثلوج فبراير القاسية.. لابد أن يعود إليها إذاً.

ألح قلبه على زيارتها في المطعم المكسيكي؛ حيث التقاها قبل، ولكنها بحسب ما زعموا له؛ قد تغيبت في عطلتها السنوية التي ابتدأت في اليوم الذي أعقب لقاءهما.. لم يكن يخطر له على بال أنه لن يراها ثانية.

توالت خطاه إلى المطعم المكسيكي؛ عسى أن يسكن قلبه، ولكنه يعود في كل مرة مثقل القدمين، يشخط في الأرض وقد أرهقته التعاسة.. إن مدة عطلتها لا تزيد على عشرة أيام ؛ كما أخبر.. فلماذا لم تعد حتى اليوم؟

ها هي أوراق إبريل تخضوضر، وأزهاره تبتسم، وعصافيره تغني للحياة؛

Twitter: @alqareah

لكنها لم تعد بعد!! قيل له ذات مرة إنها تركت العمل.. لم يسمح لنفسه بتصديق ذلك، وأصر على أن النادل يغرض إلى صرفه حتى لا يعود، أما هو فكان يكتفي بنظرة عابرة في داخل المطعم.. يكتفي بجزء منها أحياناً حين يقول له قلبه إنها ليست هناك؛ فيعود خائباً.

ليست أمينة لي..

ليست أمينة لي..

إنها الوهم اللذيذ.. حسبي أن تعيش قصيدة في صدري؛ كي أغني لتلك السلافية الشقراء، وأنا أرمق هلال قرطها؛ وقد مالت به نحوي في حرارة؛ كي تريني ما تبقى لها من الوطن السليب..

ها أنذا أعود يا صغيرتي إلى وهج الشمس ثانية.. (أمينة.. يا أمينة.. يا لوحاً من سفينة غارقة؛ تقذف به الأمواج : لست أنا المرفأ.. ولست أنت النجاة!!).

◆ ◆ ◆ ◆

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

كان إبراهيم أبو ضبة متحيراً بين عباءاته الثلاث، أيهما ينتقي للباسه؛ فقد لزم عليه اليوم أن يكون أنيقاً ومهيباً، لائقاً بمقابلة الوزير، وقد مكث أمام المرآة أكثر مما تمكث امرأته؛ التي كانت تتحدث -حينئذ- ولا يوليها اهتماماً، وبعد فروغه من اختيار العباءة وانصرافه عن المرآة؛ استدار إليها أخيراً، فقالت:

- إذن فقد تأكد مجيء الوزير أخيراً، وإذا لم تمانع؛ سوف يذهب الباقون إلى المظهرة.

- وماذا في المظهرة؟

- سوف تجري اليوم مسابقة لحمير القرية، ويرغب الأولاد في الذهاب.

- حمير؟.. أما زلتم تجرون مسابقات الحمير.. وهل في القرية غير الحمير؟!

وعلى كل حال.. البنات لا يذهبن.

- حاضر.

- ولا أريد نساء في البيت عندما أعود.

- حاضر.. حاضر..

Twitter: @alqareah

- يقولون (مسابقة للحمير).. هه!

كان خمسة من الرجال يلبسون عباءات قد تصدروا حشداً من الرجال، ويتميز من بينهم مدرس قديم ترك التعليم، واغتنى بالنخل وأسباب أخرى، كانوا يدعونه سراً (الحديّة) أما في حضرته فهو الأستاذ أحياناً، والشيخ البكري أحياناً أخرى، طال بهم الانتظار؛ ولم يروا سيارة الوزير، وعلى بعد أمتار منهم كان إبراهيم أبو ضبة في ثلة من أهل البلد متوسطي الحال ينتظرون أيضاً..

كان أبو ضبة يتحسس أوراقاً في كمه، ويشرد البصر مرة بعد مرة؛ ولا تكاد تراه ينظر إلى المجموعة الأخرى؛ إلا الندرى، وكان الجميع مستائين من تخلف أكثر الشباب، فقد تغيب حتى أولئك الذين عرف عنهم السعي المضني في قضاء حوائج القرية، وهذه المرة الأولى التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل، وما الذي جَدَّ في سباق الحمير؛ لينصرف إليه أهل الجِدِّ والوقار من الشباب؟!

كانت ظروف القرية تلك الفترة في غاية السوء، فقد تقشع سقف المدرسة، كما لم تعيِّن الحكومة إلى ذاك الوقت حكيماً للمستوصف؛ بعد أن تبين أن السابق لصٌّ وطرده أهل القرية، فضلاً عن أن العائثين فساداً من القرى المجاورة ما زالوا يؤذون الأهالي دون أن يجدوا رادعاً من السلطة؛ ولهذا أمل كثيرون أن تقضى حوائج القرية؛ أو أكثرها في زيارة الوزير، والتي يرجى ألاَّ تقل عن ساعتين، فالقرى التي ينوي زيارتها لا تزيد عن ثلاث؛ حسبما علموا.

قال إبراهيم ضبة بصوت مثقل بالملل:

- إن لم يأت الوزير هذه المرة؛ فسنأكل الخرء.

- رد أحدهم: أوَيتوقع ألا يجيء؟.. ومن لهذه المصائب في القرية؟ والله يا

Twitter: @alqareah

حاج إبراهيم كل أملنا فيك.

- يا رجل.. البركة فيك.. بل فيكم جميعاً.

- لا والله ليس لها إلا أنت.. هذه الأمور تتطلب اللباقة والكياسة وسعة الأفق.

آخر - وما معنى سعة الأفق هذه؟!

- أعني أن حاج إبراهيم أبو ضبة متمرس على الحديث مع ذوي الشأن.

أحد أقرباء أبو ضبة - ولكن ماذا لو سبق إليه ذلك المدعي النزق (الحدية).

أبو ضبة - لا.. لا البكري رجل جيد؛ ولكن المشكلة أن الموضوع يتطلب خبرة.

آخر- نعم.. خبرة وروية!

- أبوضبة: ولهذا أرى أن يكون الغداء في منزلي بدلاً من المسجد.. يا ولد قل للقائمين على الغداء يذهبوا بالسفرة إلى منزل إبراهيم أبو ضبة .

في هذه الأثناء كان نفر من أصدقاء البكري يشيرون عليه أن يستبق القوم اثنان منهم إلى القرية السابقة؛ ليصطحبا الوزير ورفاقه إلى حيث ينبغي، وكان البكري يطلق وعوداً بألاّ يدع الوزير؛ حتى يصدق له بكل ما يطلبه الأهالي.. وفي تلك الأثناء؛ كان الشباب والباقون يمرحون في سباق الحمير.

كان الشيخ الصالح في المسجد عاكفاً على مصحفه؛ لا يبالي ما وراءه وما خلفه من ضجيج، فيما أهل القرية منقسمون بين انتظار الوزير ومشاهدة سباق الحمير، وقد بدا له الجو هادئاً؛ كأنه كان يتسنح فرصة كهذه لينعم بتلاوة لا يكدرها إزعاج المتجادلين في المسجد.

كانت الشمس قد ارتفعت للعصر حين جاء أحد المزارعين ليؤذن، وفي وجهه

Twitter: @alqareah

بقية ضحك، قال له الشيخ؛ وكانت بينه وإياه مودة وعبث:

- هه.. أحسبك كنت في السباق

- نعم يا مولانا

- هه.. وأي الحمير قد فاز؟

- لم يأت الوزير بعد يا مولانا

- هاه هاه .. إذن فقد نجّانا الله..

Twitter: @alqareah

الشبح

Twitter: @alqareah

كان الطريق طويلاً أمامها حتى تصل إلى العاصمة، حيث يعيش عمها، ولأن الطريق غير معبد؛ كان الباص خشناً، فهو ليس إلاّ (لوري) أُزْجِيَ إليه صندوق رُكّاب، وقد ازدحم الركاب لضيق الكراسي، وجلست هي بناحية الشباك؛ ضامة رجليها جهته، وتكاد لا تلتفت إلى الجانب الآخر، وكلّ تفكيرها منحصر في عَمِّها الذي ستأوي إلى منزله، مدة دراستها بالعاصمة، إنها لم تزل تذكر ملامحه الصارمة وصوته الجهوري، وفي أذنيها بقايا قصص حكاها أبوها عنه.

كان الجو صيفاً قائظاً؛ ومع ذلك حرصت على لباس سابغ، ولأول مرة ترتدي خماراً تحت الثوب، وتحرص على أكمام تصل حتى الرسغين، كانت ترمي بنظراتها -أحياناً- إلى الرمال التي تناثرت في عرصاتها حشائش شاحبة؛ تعاند الموت، وكلما اقترب الباص من المدينة؛ تظهر أشجار خضراء ضخمة؛ تظلل الفراغ، وتلوح منازل وأناس يشبهون الجراد، وقد شغلها التفكير فيما ترى وفي عمها عن تذكر أهلها في الضاحية بقدر كاف، وكان الظمأ قد بلغ

Twitter: @alqareah

منها مبلغه؛ حين رأت نفسها في وسط العاصمة.

وجدت عمها -حين رأته- قريباً مما تتذكره، وقد ازداد شارباه غلظاً، وأماط الصلع عن جبينه بقية الشباب، وعيناه ما زالتا حمراوين كالجمر، وبدا سلامه مختصراً وفاتراً، ولكنها لم تأسف لذلك؛ فأسرته كانت تبدي أقصى الترحيب، وقد أقنعت نفسها بأن تحتمل من عمها كل شيء، وكان يكفي أن ترى شبهه الشديد بجدها لتطمئن.

بالرغم من إصرار زوجة عمها وبناتها عليها لتأخذ راحتها، وتخفف من ملابسها -بالغة الحشمة- إلا أنها تغافلت عن ذلك، وكانت تنظر خفية إلى عمها الذي كان بصره شاخصاً في نافذة مغلقة، ولا يهتم بشيء مما هم فيه.

جاء وقت الغداء؛ وعرفت أنها إن لم تبادر بعرض خدمتها منذ هذه اللحظة فستضيع شيئاً ثميناً، ذهبت الأم إلى المطبخ والبنات خلفها بنشاط، وقد سمحن لها -بعد لأي- أن تَعُدَّ الأطباق، وحين فرغن وُضِعَ الطعام في مجلس الأب ليأكل مع ولده الصغير وحدهما..

كانت جائعة؛ ولم تجد بداً من الانتظار، ومع ذلك لم تفتأ تشعر بالظمأ الذي لم يطفئه نصف لتر من الماء؛ اجترعته منذ مجيئها، كانت البنات وأمهن يتحدثن بصوت خفيض عن جار لهم مات بمرض غريب، وهنَّ يتضاحكن وقد بدت إحداهن -وتدعى أفراح- أكثر ابتهاجاً، وكانت لا تنفك تهزأ بأمها بما يشبه المزاح، ثم حمحم الأب وسعل؛ فانقطع صوت الفتيات..

كان نومها تلك الليلة مشوشاً بين مرأى وجه عمها المقطب، وبين تذكر أهلها، وتارة تقفز أمامها صورة لابنة عمها أفراح؛ وهي تتبرم من عمل البيت، وترقد أمام التلفاز على بطنها، كانت جميلة الوجه، أو أنها قد أقنعت الناس بذلك.

Twitter: @alqareah

بعد عامين من العيش في منزل عمها؛ بدا كل شيء أمامها سهلاً وواضحاً، وكلما تأخرت مع أفراح حتى ساعة متأخرة من الليل كان عمها من يسهر ليفتح لهما الباب ببروده المعتاد؛ دون أن ينبس بشيء، ثم تذهبان إلى غرفة لهما وحدهما وترقصان؛ أو تضحكان، ثم تنامان؛ بينما يمشي العم بساقيه المصطكتين ليتناول ماء يبلع به الدواء.. ثم يغمض عينيه دون أن ينام.

◆ ◆ ◆ ◆

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

شرع ينتزع سيجارة (روثمان) من علبتها..

وعيناه ضاحكتان أمام عينيها، وهي لم تزل بعد خجلى؛ كأنهما عروسان لتوهما، لم يكن طيلة العامين قد تبدل مظهرها في شيء؛ غير أنها تلبس جوارب في كفيها وفي قدميها؛ من النوع الذي يلبسه الرجال، حاول كثيراً أن يمسك بيدها وهما يسيران في حديقة عامة؛ ولكنها بعد أمد قصير تسحبها برفق، ويعلو وجهها الحياء والحرج، وحين يصبح يراها متلفعة ثوباً صفيقاً وتطبع على خده قبلة، ثم تعود من سوق الخضار؛ لتجده قد استحم؛ فتضع رأسها على صدره.

كان يتمنى لو تنازلت زوجته قليلاً عن قيود مظهرها، حيث يعجبه أن يراهما الناس سعيدين، وأن يحسدوه على الزواج بها، وهو على يقين من أن حسدهم لن يضره؛ وإنما سيزيده حباً لها.

تذكر كم غنيا معاً في دلجة الليل أجمل الأغاني، وقد بدت في قميص نومها الوردي؛ كوردة متفتحة لم تقطفها يد، ثم يخامره حزن حين تتقاطر

Twitter: @alqareah

دمعاتها، وقد علمت أنه لن يمكث معها إلا شهراً فقط؛ ثم لن يعود إلا بعد عامين آخرين.

كانت الساعة قد أزفت على موعد الوصول، ورفيقه الثرثار ما زال يقصُّ له عن نكد زوجته؛ التي تغيرت بعد غيابه، وأنه عزم على طلاقها؛ ليتزوج بأخرى..

قرر أخيراً أن يستمع إليه على وجه المجاملة؛ مع أنه لم يرتح إليه أبداً، تسرع رفيقه بلعن الغربة، وقال:

- صدقني النسوان لا عهد لهن ولا دين، لقد جربت الحلال والحرام؛ فوجدت سائرهن (زفت)..

- ليس كلهن..

- أعلم أنه ليس كلهن، ولكن كيف تثق بالنساء؛ حين تجد امرأة تروم الطلاق؛ لتتزوج من عشيقها الذي عرفته في غياب الزوج.. (عليَّ الحرام) هذا ما حدث...

- يا لك من تعس..

وهل ستطلقها قريباً؟

- أطلق من؟

- امرأتك.. وإلا فمن!

- أنا لا أتحدث عن امرأتي؛ وإنما عن حسناء من زوجات المغتربين..

تعمل محاسبة في شركة؛ لا يجيئها زوجها إلا كل عامين؛ فقررت الزواج بها.

كانت عجلات الطائرة قد مست الأرض محدثة جلجلة في قلبه، ولم يكن ينقصه للقضاء على كل حلم جميل؛ إلا أن يسأله عن اسمها الكامل،

Twitter: @alqareah

واسم الشركة، وكانت تلك الرحلة الأخيرة له..

وما زالت تنتظر متى يجيء إلى اليوم، وحين تأوي إلى فراشها تحتضن قميصه وتعاتبه؛ حتى يبتل القميص، وتقسم في نفسها أن تنتظره حتى الموت..

Twitter: @alqareah

السعادة.. وجه آخر

Twitter: @alqareah

في قاعة وثيرة الأرائك تتخاطفها ألوان الأزرق والتركواز، وعلى جدرانها لوحات جميلة لا يفهم معناها، جلس القرفصاء، وذراعاه ملتصقتان بعرض الأريكة؛ كجناحي طائر، وعيناه تومضان ببريق لذة، كان فنجان الشاي الأنيق أمامه قد برد؛ حين قال لصديقه:

إن لم تكن السعادة ما أراه؛ فأي شيء تكون؟!.. أواه أين أنا منها؟!

- وهل ترى نفسك غير سعيد؟!

- نعم.. لا.. الحقيقة لا أدري.. ولكني لا أشك في أنك أكثر سعادة مني: نعيم، وزينة، وأسرة طيبة متحابة، وكل الأمور تبدو تمام التمام..

كان يتحدث بينما تتماثل أمامه صورة أبيه؛ وهو يهوي بحبل تيل ثقيل على ظهر أمه؛ لأنها قدمت له فطيراً محترقاً في بعض أجزائه، ثم عاد قائلاً:

- وكيف يعاملك أبوك؟

- مثلما تراه تماماً.

- أوه إذن.. وهل يحمل السوط أحياناً!

Twitter: @alqareah

- السوط! ما بالك اليوم؟!

- آسف على هذا السؤال.. ولكن لا أصدق أن تكونوا سعداء في كل شيء!

- أنا لم أقل أننا سعداء في كل شيء.

- فاقصص عليَّ إذن بعض منغصات سعادتكم.

- يا لك من طُفَيْلِيّ مجنون..

- أرجوك بما بيننا من إخاء..

- حسن.. ولكني لا أتذكر شيئاً الآن!

- سوف أساعدك: ألم يحدث أن سمعت أباك يشتكي تدخل جدتك في حياته، أو يُقَرِّعُ والدتك على إفشاء أسرارها.. أو...

- مهلاً.. لم يحدث أن عاتب والدتي أمامنا؛ أو عاب أهلها قط.

- أف.. أنت مقتنع معي أنه لا بد من نقص في سعادتكم؛ أليس كذلك؟

- نعم مقتنع؛ ولكني لا أجده.

- ألم تملوا هذا النعيم والترف، وهذا التلفزيون الضخم الذي يقبع مثل فيل صغير؟!

- إذا مللنا شيئاً أبدلناه بجديد أجمل منه.. نحن لا نعاني مشكلة من هذا النوع..

- يا للغباء.. أما تشعر بأي نقص؟

- مطلقاً يا صديقي العزيز..

- وحتى في الدراسة؛ أنت وإخوتك ممتازون، وصحتكم جميعاً أنشط من البغال، بينما لم تترك سياط ذاك الجلف لنا عقلاً ولا رحمة! (قالها بصوت خفيض).

Twitter: @alqareah

كان الطريق إلى منزله بعيداً، وبدا الفاصل بين الحيَّيْنْ كسور بين الجنة والنار، وحينما بلغ حارته رأى مجموعة من القطط تتناهش بقايا سمكة، ويعتدي بعضها على بعض، ثم تسير معاً مهرولة إلى ركن مظلم، كان يرى نفسه -تلك الساعة- مثل قطة، وظهر منزله على البعد مثل شجرة يابسة؛ ولا بد أن أباه الآن قد جاء لشرب شاي المغرب والمبيت، فمن سوء حظه أن الليلة ليلة أمه التعيسة؛ وسوف يفاجئه أبوه بمليون سؤال عن الغنم، وإصلاح (الطلمبة) دون أن يخطىء لسانه بسؤال عن دراسته؛ أو صحته، وحين رأى أباه بدا له مثل قط سمين قذر؛ تفزع منه القطط، وبعد قليل سوف تجيء أمه؛ لتغسل قدميه العفنتين بماء الملح، بينما ينعتها بأوسخ الألقاب، أمّا هي؛ فلا تجرؤ أن تخاطبه إلا مكنية إياه بأبي صلاح، وكان جميع الناس ينادونه بـ(أبو صلاح)، ولا يرضى منهم بغير ذلك، وحتى إذا وَقَّعَ في ورقه؛ فإنه لا يوقع بغيره، كانت بعض نظرات أبيه الحادة تصيبه كلدغات نحل، ثم تعود كأنها تبحث عن سبب لتوبيخه، كان سعال أبيه قد كثر، وعيناه على الرغم من بريقهما المخيف مليئتان بالتعب الذي يحاول إخفاءه، لقد بدا له أبوه في هذه اللحظة ضعيفاً جداً، وتفطن إلى جلده الذي أصبح فضفاضاً على جسده النحيل، وظل ينتظر -برغبة غريبة- متى ينادي أبوه أمه، ولو بأسوأ الأسماء لترد عليه: نعم يا أبو صلاح .. أحسّ أن هذه الكلمة تخفي في باطنها عالماً شاسعاً من سعادة؛ لطالما غفل عنها، وساوره الخوف من أنه يوماً ما سيفقد صوت أبيه الأجش وهو ينادي أمه يا (...)، فتجيب مثل قطة بيضاء؛ وهي مسرعة إليه: نعم يا أبو صلاح، أما إلى هذه اللحظة؛ فما زال ينعم بسماع ذلك.

Twitter: @alqareah

حكاية من أرض النوبة

مأساة زينة

Twitter: @alqareah

يحكى أن فخذاً من قبيلة ربيعة انخزع عن موطنها بـ (دُنْقُلَه) أيام مملكتها إلى أرض قصية؛ بقرب الحبشة، وصابا رجالها إلى بغايا حسان من تلك البقعة، فتفشى فيهم الزنا وتهالكوا في الخمر وانفرط أمر دينهم، واستمر حالهم من سيء إلى أسوأ؛ حتى دانوا لأعدائهم، وانكسرت شوكتهم.

كان أربعة رجال من عقلائهم لّما رأوا تلك الأحوال عزموا على أن يهاجروا من قريتهم؛ قبل أن يحل عليها عذاب، واعتقدوا أن يقصدوا أرض (دنقلة) حيث أهلهم هناك في أحسن حال؛ من أمر دينهم ودنياهم، ولما بلغوا (دنقلة) أحسن ملك ربيعة استقبالهم، وأحلهم بأكرم منزل، وأنكحهم من بنات أسرته فمكثوا ما شاء الله لهم أن يمكثوا بأنعم بال، وأصبحوا من خواص الملك وأهل مشورته، واشتهروا بين الناس بالحكمة والعدالة، ولما مات الملك وخلفه ابنه المدعو ذياب؛ وجد أمراً مفروضاً عليه أن يجعلهم بالمكان الذي جعلهم أبوه؛ غير أنه لم يبال أن يستشيرهم في كل أمر.

وكان هذا الملك -الوريث- يأتي بعض المنكرات في الستر، ولكنه يظهر للناس

Twitter: @alqareah

الاستقامة، ويقيم فيهم العدل، وكان عمه رعيني كبير أسرته، والمشهور بالعبادة؛ يبالغ في الإنكار عليه، ويهدده بخلعه؛ وهو لا يفتأ يتلطف له؛ ويتعذر ويعد بالتوبة، وكان الناس يستاؤون لما يسمعون من فساد ملكهم، ويخشون أن يحيق بهم ما حاق بقومهم المنقطعين في الأرض القاصية، أما أهل الخلاعة وأصحاب الباطل فيريدون بقاءه.

كان الشيخ قد انقطع بسعال؛ ثم عاد يحدث حفيده الصغير عن قصة الملك ذياب، وكيف كانت البلاد تعج بقطعان الماشية، وثمرات النخيل في عهده؛ ثم يمد يده إلى قدح متعفن بيديه المرعوشتين، وقبل أن يصل إلى منتصف القصة يعود إلى بداية ما حكى، ويردد بعدها: كنا على الرمال ننام معهن.. والله يا ولدي..

لعن الله أولاد الحرام.. ثم يسعل كثيراً..

كانت البيوت في تلك الساعة يربض فيها ليل قميء، وتلتمع بيوت يفوح منها دخان وضحكات، وسار الولد إلى بيت أبيه وهو لا يفهم شيئاً من كلام جده الذي يعيده عليه كل يوم، ويسأل أباه عن الملك ذياب؛ فيجهله أبوه، وتغني عمته الشمطاء حينئذ:

أرباب ذياب يا عيني
تحت التراب يا عيني
قتلوه بطرفة عيني
أغراب وعمو رعيني
ورجال ربيعة يا عيني
ما لهم أثر في عيني

Twitter: @alqareah

ثم تأوي إلى فراشها الرطيب؛ ممسكة بخرزات في عنقها، وهو في حجرها لتكمل له قصة الملك ذياب، وعمه رعيني؛ الذي باع البلاد لأربعة غرباء كانوا يسلفون الفقراء أردب القمح بأردبين، حتى جاء الأعداء؛ فأهلكوا الجميع، وأورثهم الله أرضهم وأموالهم.

Twitter: @alqareah

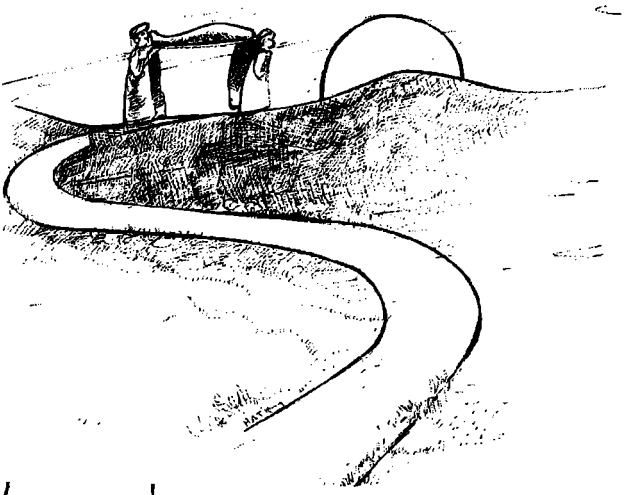

جنازة حليمة
أم فرج

Twitter: @alqareah

ماتت حليمة (أم فرح).. كان النبأ مذهلاً للجميع، فقد كانت حليمة (أم فرح) بالرغم من كبر سنها تبدو فتية كالشواب، وحين سمعت النبأ؛ أدركت أن أشياء كثيرة غفلت عن أنها كسائر الأشياء؛ سوف تنتهي يوماً، فقد كنت أرى حليمة (أم فرح) مثل السماء التي تظلل القرية، ومثل النيل الذي نودعه أسرارنا، ولكن من يزعم أن السماء والنيل هما السماء والنيل ذاتهما؛ في سائر الأيام..

قالت لي أمي؛ بعد أن أغدف وجهها بالدمع :

- والله يا ولدي انقضى الناس الطيبون.. أستغفر الله؛ ليتني مِتُّ بدلاً منها..

- يرحمها الله يا أمي، الموت حق.. ولكن كيف ماتت ؟

- يقولون إنها انشغلت بنفاس بنت الطاهر، وأهملت في الدواء.. إنَّ أحداً لم يكلف نفسه تذكيرها به؛ يالمسكينة..

كانت علامات الحزن بادية في وجوه الناس؛ حين رأيتهم في صلاة الظهر،

Twitter: @alqareah

ورأيت ابنها فرح في حالة يرثى لها، وقد توافد عليه المعزون، وفيهم حاج ضرار؛ ابن عم أبيه، وأقرب الناس إليه، وكان -بالرغم من سمرته النوبية- يبدو ابن أخيه شبيهاً به، وكان إمام المسجد مشغولاً بترتيب المسجد؛ لاستقبال المعزين؛ الذين سيأتي كثير منهم من القرى المجاورة، إذ أكثر أبنائهم قد ولدوا على يدي حليمة (أم فرح)، وأكثر بناتهم ختن بمشرطها، غير العلاجات الكثيرة التي وصفتها لهم، وأنتهم بها عن إهدار أموال طائلة؛ في المصحات الحكومية المرهقة.

أبلغ إبراهيم الجزار المصلين بأن الجنازة سيصلى عليها عقب العصر؛ بعد فروغ النساء من تكفينها، وحين انقلبت إلى المنزل؛ رأيت ثلة من الرجال يسيرون بجدية صوب المسجد، لمحت من بينهم أستاذ دردير ناظر المدرسة المهيب، ومعه سيد العبيد الخياط، ورجل آخر لم أتبينه، لكني؛ كأني رأيت عنقاً حمراء تشبه عنق جرجي صاحب التنكر، وَخَمَّنْتُ أنَّ وراءهم أمراً؛ أو أنهم -للتو- علموا بالخبر.

لم يزل في خاطري -حين بلغت المنزل- البحث عن سبب تلك المشية التي رأيت الأستاذ دردير ورفيقيه يسيرانها، ولم أستطع كتمان أمي تعجبي؛ فقالت لي؛ وهي منشغلة بالتسبيح :

- إن شاء الله يا ولدي يكون خيراً.. ليس ما أخشاه إلا ما حدث لبنت دوليب؛ سرقت ذهيباتها يوم وفاتها.. توبة يا رب.. أستغفر الله

- والله كل من حولها مخلصون.

- وهل كان لحليمة (أم فرح) ذهب !.. لقد كنت أحسبها فقيرة.

- هيييه.. لقد ترك لها مكي ود فرح ذهباً يغني عشر أسر، ولكني أحسب أن حليمة قد أنفقت أكثره؛ في قضاء حوائج الفقراء، الله يسترها؛ لم

Twitter: @alqareah

تقصر معنا أبداً.

كان الجمع في صلاة العصر عظيماً جداً؛ لأن كل القرى التي حولنا تلقت الخبر، وطوال المدة؛ قبل إقامة الصلاة أرى رأساً يتكوم عليها شعر أحمر كالنحاس؛ تنخفض وتعود. يا للمسكين؛ إنه لم يزل يتلقى العزاء منذ الزوال..أما أنا؛ فقد اختلس سمعي دعاء من إبراهيم الجزار؛ حيث كان بقربي؛ فطفقنا جميعاً ندعو لها.

كان مكوث الناس طويلاً بعد الصلاة؛ لانتظار الجثمان..وكان إبراهيم الجزار يتأفف؛ ويسب النساء اللائي تأخرن في تجهيزها، لبثنا قليلاً، ثم رأيت جموعاً من الناس حول أستاذ دروديري، وسيد العبيد الخياط، ومعهما إمام المسجد، نظر إليَّ إبراهيم الجزار قائلاً:

- قبحهم الله؛ أهذا وقت الهراء ؟

- رأيت الناس يقومون جميعاً، وقد علت كلمات لم أفهم منها شيئاً، ثم لسبب لم يعرفه كثير من الأغرار والنساء الطيبات؛ لم تدفن حليمة (أم فرح) مع موتانا؛ وإنما سار بها جرجي إلى المدينة، ورافقه عدد من الناس.

Twitter: @alqareah

عودة همي

Twitter: @alqareah

كان المشروع يغصُّ بالباعة، وبنساء يحملن سلال البيض المسلوق؛ بينما وقف حوالي سبعة رجال مثل جذوع السرو؛ لهم شوارب مخفية؛ يتحدثون بصوت خفيت، قال أحدهم؛ وهو مقطب وجهه مثل صقر :

- أرى على البعد خيط دخان يتصاعد.

قال رجل ملثم بإزائه :

- لابد أن الوهن قد دب إلى جسده

نظر إليه رجل يدعونه مرعي؛ له لحية متقزعة :

- لا يا حماده.. لا أظن سيهزم بسهولة؛ فقد كان يفتُّ نوى التمر بأصبعيه.

- ولكن؛ ربما يكون الزمان قد كسرشوكته قليلاً!

قال أصغرهم سناً؛ وهو في الأربعين من العمر (وعلى وجهة ابتسامة؛ برقت معها عيناه) :

- يفت النوى؛ أم يفت العظم، فقد تغير الزمان على كل حال.

رد عليه مرعي؛ بصوت متخدش :

Twitter: @alqareah

– صبيان سخفاء.. سوف ترتعدون من مجرد النظر إلى عينيه.. هه قال: تغير الزفت!

– لا أدري؛ أحسُّ بالضيق من هذا الانتظار!

حدجه بعض الرجال بنظرة؛ فعاد وقال – ولكني سعيد بمقابلة الزعيم.. ألم أخبرك مراراً بهذا يا رفاعة؟

كان شبح السفينة قد بدأ يلوح على البعد، وأصوات الرجال قد ذابت في ضجيج الزحام، وزغاريد النساء... ينتظرون في حرقه.. وجعل الناس يحيطون بالمشروع من كل جانب، ويتحدث بعضهم -بمرح- عن وصول رجل كان قاطع طريق يسمى (هيمي)، كانت أغطية السفر الملونة قد شدَّت انتباهي، وانصرفت إلى حديث مع البائعة العجوز حول هيمي، كانت تقول: إنه ليس غريباً.. ثم بفتور تقول: إن الزمن قد تغير كثيراً.

كان أكثر الناس قد انصرفوا مع مسافريهم إلى القرى، ولم يبق إلا بعض البائعات، ورجل هرم كالعراجين؛ وليس معهما أحد.. وهمس لي الرجل الهرم، وقد لمحت في وجهه ندباً وخطوطاً، وكانت إحدى عينيه ممسوحة :

– لقد تغير الزمن؛ يا ولدي كثيراً..

ثم سحب قدميه؛ إلى حيث يسيران.

Twitter: @alqareah

الكأس الأولى

Twitter: @alqareah

كان طرقه الباب أشبه بوقع حبات من مطر صيفي، ومنذ الطرقة الأولى؛ بدأ الرفاق الذين نصبوا الزجاجات الملأى بماء ذهبي شرير؛ ينتابهم إحساس بأن القادم إنسان لم يروه من قبل، كان جاكيته الغليظ ثقيلاً على كتفيه أكثر من أي وقت مضى، بدت نظراتهم إليه -حال دخوله- مرتابة من شيء ما، أما هو فلم يتريث لمعرفتهم؛ حتى خاض معهم في كل واد، أحبَّ ألاَّ يشعر بأي نوع من الهدوء، وقد بدت له الحياة من حوله بحراً لا مرفأ له؛ إلا ها هنا، كان لابد له أن يضحك منذ اليوم الأول، وأن يكثر الضحك؛ وإلا نسي كيف يضحك.

طالت الليلة تلك بهم وبه؛ حتى اختفى القمر من برواز الشرفة، وأعقب الصفو غمام رمادي؛ فخلدوا إلى النوم، أما ه؛و فبات يكمل تلك الضحكات على فراشة، وفي أذنيه صدى أغنية قديمة؛ كان يغنيها كهلان ثملان.

حين بدأ جفناه يثقلان على عينيه؛ أخرج سبحة قديمة مهترئة الخيط، لكنه ما إن مرَّ على حبات منها؛ حتى سكنت أصابعه، ورأى أمامه أهيالاً من رمال

Twitter: @alqareah

صفراء، وحشائش متفرقة؛ تقترب إليه في بطء، ثم ما إن تبلغ حدّ اللّحاظ حتى تَفرّ إلى الوراء، ويتمنى لو مكثت قليلاً.

كانت شفتاه قد التصقتا بريق لزج، ثم أحس فجأة بيد تجسّ على كتفه بحنان، ولم يكن بحاجة ليرى يد من هي؛ ثم عادت اليد، وتسرب إلى مسامعه صوت حنون :

- احرص على نفسك يا ولدي.. لا أوصيك.. تحصن جيداً.

- إن شاء الله يا أمي؛ لا تقلقي.

قال سائق العربة؛ وهو ابن عمه.

- يا جماعة؛ لا يحتاج ولدكم إلى وصية.. وهل في الأرض أفسد من هذا البلد الخبيث.. اذهبوا إلى العاصمة؛ تروا بأعينكم البلايا الزرق.

كان الحديث فرصة لابن عمه؛ ليصبّ المزيد.

- يا زول.. لا تخف.. الحياة تجارب؛ حتى لو وقعت في خطيئة هناك؛ فليست إلا نزوة تفيق بعدها.

- هبطت تلك الكلمات على صدره باردة؛ وكأنه تلمس فيها مخرجاً من ضيق وقلق، وتذكر حديث الأمس مع ابن عمه هذا؛ وهما يتسامران في ملذات الدنيا في الغرب، وكيف أقسم ابن عمه بالطلاق أن إذا رقد بين فخذي خواجية؛ ليحرمنّ على نفسه لمس فتاة من البلد.. لقد أَنِسا وقتاً طويلاً تلك الليلة؛ بينما كانت أمه تنتظره بالعشاء؛ حتى غلبها النوم؛ فنامت جائعة.

لم يكد يسمع ملامسة عجلات الطائرة الأرض، حتى أخرج سبحته وبدأ في أوراد أعدها لحمايته، كان يثق بها ثقة مطلقة؛ فلا أمان له إلا بها، وما إن يسهو عنها لحظة إلا هلك، عرف أن الساعات الأولى سوف تحسم الكثير من أمره،

Twitter: @alqareah

فقد كان يعلم على أي رفاق سيقدم، وعرف أنهم إن استثقلوه، ناله منهم أذى؛ أو تركوه وحيداً على أقل تقدير، ولهذا لابد من بعض المصانعة لهم، ولا بأس بتنازل قليل، وستكفل الأوراد حمايته من التوغل إلى الحرام.

كانت ليلته مع الرفاق مجاملة فحسب، ولسوف يستفيد بتحطيم حاجز الغربة بينهم؛ لهدايتهم، ومع أن أحدهم كان يعتذر له بين فينة وأخرى؛ عما بين أيديهم، ويشير إليه بإمكان الذهاب للنوم بنبرات أبوية؛ سمعها من قبل؛ إلا أنه أصر على إبداء السماحة لهم، وجعل دخان السجائر يتصاعد إلى السقف؛ مع ضجيج وقتار شواء، والزجاجات ما زالت تبرق؛ كابتسامة بغي عارية؛ ولكنه مطمئن مع ذلك كله، وها هو ذا على الفراش يقنع نفسه بالرضا؛ لأنه -رغم ذلك كله- لم ينم حتى أدى الصلاة.. إنه يتذكر جيداً أنه أداها؛ وفي غالب ظنه أنها صلاة العشاء.. قال بصوت مهموس : نعم لقد صليت أربع؛ أو ثلاث ركعات.. آه؛ أو لعلي صليت ركعتين، ونسيت أن..

ثم استغرق في النوم؛ وعلى وجهه ابتسامة؛ أشبه بتجاعيد على وجهه، وكان المرة الأولى التي يبتسم فيها؛ وهو لا يريد أن يبتسم، ثم كان النوم عميقاً جداً.

Twitter: @alqareah

فهرست

إهداء 5

القلادة 7

ضوء نجمة 13

النزغة 19

في انتظار النور 25

حياة جديدة 31

الدمى والشيطان 37

عودة النورس 45

سباق الحمير 51

الشبح 57

لعنة الوهم 63

السعادة وجه آخر 69

حكاية من أرض النوبة.. مأساة ربيعة 75

جنازة حليمة أم فرح 81

عودة هيمي 87

الكأس الأولى 91

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

AL - DOMA WA AL - SHAITAN

محمود محمد حسن

الدُّمى والشيطان

في ليلة لامعة النجوم ؛ بدا بيت أبو شنيبة مشابهاً للنجوم بلمعانه في أرض خيم عليها الظلام.. كانت الإضاءة تنبعث من كل جانب، فهناك غير إضاءات النوافذ أنوار منبعثة من فوانيس كهربية ضخمة؛ منتشرة على السور، وأخرى في أطراف الحديقة ينفذ نورها عبر ثغرات اللبلاب؛ الذي يكسو الشبابيك التي تقوست على امتداد السور، وكان السكون يغطي المحيط؛ كملاءة ممتدة مثقبة ببعض أصوات البوم والصراصير.. وبين فينة وأخرى نباح كلب يتضائل حتى ينتهي بالصمت. لم يكن أحد ليحس بالصوت حتى يقترب من السور بمسافة ما يمتد من نور المصابيح المثنية على الجدار، وإذا اقترب أحد تلك اللحظة فسوف يكون أعلى الأصوات في أذنه صوت عبدالواسع، يتموج في الظلام إلى أن يصل المسامع، كان أبو شنيبة واثنان من إخوته يجلسون كنسور فترت من التحليق، وقد استرخى أبو شنيبة على أريكة وثيرة ممدداً ساقيه الضخمتين، وداعساً بكاحليه على مركوبه الفخم، وقد كسر إحدى عينيه وهو يبتسم؛ ثم يتململ ويحك عنقه وأحياناً يتثاءب، بينما كان عدد من الكهول أكثرهم من ذوي الشوارب الكبيرة والملامح الصارمة يتوزعون بين الأرائك الوثيرة والكراسي العادية، والتي لم تخل من لمسة أناقة؛ بينما انتصب عبدالواسع بثيابه الرثة يزبد ويتوعد ويحلف بالطلاق، والأخوان ينظران إلى ساقيه العاريتين؛ كما يعاينان كومة من تبن تعفن، وقد انتفخت مناخرهما.. كان عبدالواسع تلك اللحظة يقوم بواجبه بشجاعة نادرة أشبه بحالة من الجنون، ففي هذه المرة لا يتحدث باسمه؛ وإنما باسم الوفد الذي جاء معه وفوضه للحديث، ولم يبال عبدالواسع بحركة الخدام من حوله؛ لإعداد الطعام الفاخر الذي اعتاده ضيفا أبو شنيبة، بينما بدا واضحاً أن بعض رفاقه قد سنحوا فترات لرائحة أكباد العجل المشوية، والتي اشتهرت بها مائدة أبو شنيبة ..

سرديات عربية

نحو تجسيد وحدة الجذور؛ بروح سردية فيها من التنوع ما يمكنها أن تكون عابرة بين مشرقنا ومغربنا العربي، ومعبرة عن رؤانا المشتركة من خلال الارتقاء بحكاياتنا الضيقة إلى فضاءات عربية ماتعة وواعدة.

دار وجوه للنشر والإنتاج
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
ت: 2316743 - 2335875
فاكس: تحويلة 108
للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com
WAJAA AL-REMAL
5 384589324891
WOJOOOH.COM